

حاجتنا إلى التسامح



في المجتمع يتناهى خلال إدراك العقلاه والحكماء ضرورة إعادة التأكيد والاعتبار لمفهوم التسامح، وضرورة أن يكون هذا المفهوم حاضراً ومتجلياً في اجتماعنا وثقافتنا، مفهوم التسامح على قيمته وأهميته الأخلاقية والعقلية، المعنوية والفكرية يكاد أن يكون غائباً، أو في حالة تراجع وانحسار، أو ليس له ذلك التجلي والحضور المفترض، وكأنّنا انقطعنا عن ذاكرتنا التي تنقل إلينا صوراً ومشاهد ونماذج تظهر لنا كيف أنّ التسامح كان يمثل قيمة علياً، أو كأنّنا فقدنا الارتباط بتراثنا الذي طالما كان يرشدنا إلى تعاليمه وأخلاقياته وقيمه في التسامح والعفو والصفح، أو كأنّنا غفلنا عن ذلك التلازم بين الشريعة والتسامح، وكيف أنّنا نغلب مفهوم التسامح في وصف الشريعة بقولنا الشريعة السمحاء، ومن يكتسب المعرفة بالشريعة نصفه بالسماحة، وذلك من أجل تأصيل مفهوم التسامح وتعديمه بين الناس، وتحويله إلى التزام ثابت وراسخ، يظهر في السلوك ويتجلى في إعمال الفكر.

والحاجة إلى التسامح لأنّ الخطأ يصدر من الجميع، وأنّ البشر ليسوا منزهين عن الخطأ، وأنّ كلّ واحد من البشر وجد نفسه في موقف يطلب فيه التسامح، وقد يلح في طلبه أحياناً لأنّه صدر منه خطأ، ويكتفي لهذه المواقف أن نتعلم منها حاجتنا إلى التسامح، وحاجة الجميع إليه. وال الحاجة إلى التسامح لأنّ الاختلاف من طبيعة البشر، ومن مقتضيات العقل، ومن ضرورات الاجتماع. قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَزَّ الْوَنَمَ مُخْتَلِفِينَ) (هود/ 118)، وقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس/ 99)، وأنّنا نمارس الاختلاف ويمارس علينا، وهو من مشاهد الحياة اليومية. ومع وجود الاختلاف تحتاج إلى التسامح لكي لا يتحول الاختلاف إلى تباعد بين النفوس، ولكي لا يزرع الأحقاد بين الناس، ولكي لا يولد النزاعات بينهم. بل من أجل أن يكون الاختلاف رحمة بين الناس، ولبيثير لهم دفائن العقول، ويفضي عليهم متعة العيش والحياة. وال الحاجة إلى التسامح هي لإظهار نوازع الخير وكمب نوازع الشر في النفوس، فالتسامح هو من تجليات النزعة الإنسانية الخلاقية، تلك النزعة المنبعثة من الفطرة الشفافة النقية (فَطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الرَّنَاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (الروم/ 30)، وبقدر ما يظهر التسامح نوازع الخير في الذات، بقدر ما يكتب نوازع الشر في الآخر. وال الحاجة إلى التسامح لأنّ البشر من طبيعتهم

الضعف (وَخُلُقَ الْإِزْسَانُ ضَعْيَفًا) (النساء/ 28)، ويمررون بأطوار من الضعف، ضعف الطفولة وضعف الشيوخة (اللَّهُمَّ إِذْ أَنْتَ خَلَقْتَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلْتَهُمْ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْءَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلَيْمُ الْقَادِيرُ) (الروم/ 54)، وكلّ البشر يصدر منهم الضعف، والضعف يحتاج إلى التسامح، ولا ينبغي استغلال هذا الضعف للاستقواء على الآخرين، أو إقصائهم وإلغائهم، أو هضم حقوقهم والانتقام من حرّياتهم، لأنّ الضعف قد يتحول إلى قوة، والقوة قد تتحول إلى ضعف. الحاجة إلى التسامح لكي لا يكون التعصب بدليلاً، ولكي لا يكون قمع الرأي وهيمنة الرأي الواحد ممكناً، ولكي لا يكون العنف سبيلاً، ولكي لا يكون التكفير خياراً. والقاعدة أنّ التعصب لا يواجه بالتعصب وإنما بالتسامح، والكراهية لا تواجه بالكراهية وإنما بالتسامح، والتطرف لا يواجه بالتفكر وإنما بالتسامح، والعنف لا يواجه بالعنف وإنما بالتسامح. ولا ينبغي أن يفهم بأنّ التسامح هو موقف الضعف أو ينم عن ضعف، ولا هو موقف الامتنان أو التعالي بإبداء المصلحة والغافر من موقع الترفع على الآخرين، ولا هو موقف التردد والاضطراب واللامحس، وإنما هو الموقف الذي يظهر قوة الضمير، وشفافية النزعة الإنسانية، وعظمية الروح الأخلاقية. يكون للتسامح كلّ هذه القوة والفاعلية والتحلي، حينما يتتحول إلى موقف إنساني ثابت، والالتزام أخلاقي راسخ، ومصدر للاستلهام، وحينما يكون هناك تضامن من أجل التسامح. لأنّ الحكمة تتغلب على التعصب، والتسامح هو حكمة. وأنّ المنطق يتغلب على العنف، والتسامح هو منطق. وأنّ الشجاعة تتغلب على التهور، والتسامح هو شجاعة. وأنّ الحرية تتغلب على التطرف، والتسامح هو حرية. بهذه الدلالات والمعانوي ينبغي أن نفهم التسامح، وبهذا الإدراك ينبغي أن نتعامل معه. والعالم اليوم بكلّ ثقافاته ولغاته وقومياته ومجتمعاته، يشترك في ضرورة تأصيل مفهوم التسامح وعميمه بين الناس.

إنّ التسامح يعني: الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا، ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير. ولتعظيم التسامح ندعو إلى تعليم الناس الحقوق والحرّيات التي يتشاركون فيها، وذلك لكي تحترم هذه الحقوق والحرّيات فضلاً عن تعزيز عزمهن على حماية حقوق وحرّيات الآخرين.